

دلائل الإعجاز

يقولُ : إِنَّهُ لَيْسَ يَنْبَغِي لِلْعَاشِقِ أَنْ يَلُومَ مَنْ يَلُومُهُ فِي عَشْقِهِ وَأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ لَا يُنْكَرَ ذَلِكَ مِنْهُ فَإِنَّهُ لَا يَعْزِلُهُ كُنْهُهُ الْبُلُوَى فِي الْعِشْقِ . وَلَوْ كَانَ ابْتَدَأَ بِهِ لَعَرَفَ مَا هُوَ فِيهِ فَاعْذَرَهُ . وَقَوْلُهُ - الْكَامِلُ - :

(مَا أَنتَ بِالسَّبَبِ الضَّعِيفِ وَإِنَّمَا ... زُجْجُ الْأُمُورِ بِقُوَّةِ الْأَسْبَابِ) .

(فَالْيَوْمَ حَاجَتُنَا إِلَيْكَ وَإِنَّمَا ... يُدْءَى الطَّيِّبُ لِسَاعَةِ الْأَوْصَابِ) .

يقولُ في البيتِ الأولِ : إِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ أَرْجَحَ فِي أَمْرِي حِينَ جَعَلْتُكَ السَّبَبَ إِلَيْهِ . ويقولُ في الثاني : إِنَّهُ قَدْ وَضَعْنَا الشَّيْءَ فِي مَوْضِعِهِ وَطَلَبْنَا الْأَمْرَ مِنْ جِهَتِهِ حِينَ اسْتَعْنَا بِكَ فِيمَا عَرَضَ مِنَ الْحَاجَةِ وَعَوَّلْنَا عَلَى فَضْلِكَ . كَمَا أَنَّ مَنْ عَوَّلَ عَلَى الطَّبِيبِ فِيمَا يَعْرِضُ لَهُ مِنَ السُّقْمِ كَانَ قَدْ أَصَابَ بِالتَّعْوِيلِ مَوْضِعَهُ وَطَلَبَ الشَّيْءَ مِنْ مَعْدِنِهِ .

ثم إِنَّ الْعَجَبَ فِي أَنَّ هَذَا التَّعْرِيفَ الَّذِي ذَكَرْتُ لَكَ لَا يَحْصُلُ مِنْ دُونِ " إِنَّمَا " فَلَوْ قُلْتَ : يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ لَمْ يَدَلَّ عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ فِي الْآيَةِ وَإِنْ كَانَ الْكَلَامُ لَمْ يَتَغَيَّرْ فِي نَفْسِهِ وَلَيْسَ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ " إِنَّمَا " . وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ هَذَا التَّعْرِيفَ إِنَّمَا وَقَعَ بِأَنَّ كَانَ مِنْ شَأْنِ " إِنَّمَا " أَنْ تَضُمَّنَ الْكَلَامُ مَعْنَى النَفْيِ مِنْ بَعْدِ الْإِثْبَاتِ وَالتَّصْرِيحِ بِامْتِنَاعِ التَّذَكُّرِ مِمَّنْ لَا يَعْزِلُ . وَإِذَا أُسْقِطَتْ مِنْ الْكَلَامِ فَقِيلَ : يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ كَانَ مَجْرَدَ وَصْفٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ بِأَنَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ مَعْنَى نَفْيٍ لِلتَّذَكُّرِ عَمَّنْ لَيْسَ مِنْهُمْ . وَمَحَالٌ أَنْ يَقَعَ تَعْرِضٌ لَشَيْءٍ لَيْسَ لَهُ فِي الْكَلَامِ ذِكْرٌ وَلَا فِيهِ دَلِيلٌ عَلَيْهِ . فَالتَّعْرِيفُ بِمَثَلِ هَذَا أَعْنِي بِأَنْ يَقُولَ : يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ بِإِسْقَاطِ " إِنَّمَا " يَقَعُ إِذَا كَانَ وَقَعَ بِمَدْحِ إِنْسَانٍ بِالتَّيَقُّظِ وَبِأَنَّهُ فَعَلُ مَا فَعَلَ وَتَنَبَّهُ لِمَا تَنَبَّهَ لَهُ لِعَقْلِهِ وَلِحَسَنِ تَمْيِيزِهِ كَمَا يَقَالُ : كَذَلِكَ يَفْعَلُ الْعَاقِلُ وَهَكَذَا يَفْعَلُ الْكَرِيمُ . وَهَذَا مَوْضِعٌ فِيهِ دَقَّةٌ وَغَمُوضٌ وَهُوَ مِمَّا لَا يَكَادُ يَقَعُ فِي نَفْسِ أَحَدٍ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُتَعَرَّفَ سُبُيْهُهُ وَيُجَبَّحَ عَنْ حَقِيقَةِ الْأَمْرِ فِيهِ .

وَمِمَّا يَجِبُ لَكَ أَنْ تَجْعَلَهُ عَلَى ذِكْرٍ مِنْكَ مِنْ مَعَانِي " إِنَّمَا " مَا عَرَّفْتُكَ أَوَّلًا مِنْ أَنَّهَا